علاقات نجد بالقوى المحيطة

(١٩٠٢ - ١٩١٤م)

(رسالة دكتوراه للباحثة) منيرة عبد الله العرينان

عرض وتقديم:

د. سوسن سليم إسماعيل

تتناول هذه الدراسة الجادة، مرحلة التنافس الدولي الاستعماري حول مشيخات الخليج العربي، ومحاولات فرض النفوذ، من خلال (علاقات نجد بالقوى المحيطة). والحقيقة أن رسالة الباحثة السعودية الجادة، تكتسب أهميتها من كونها تعالج موضوعًا جديدًا على الجامعات السعودية، حيث تتناول الدراسة موضوعًا حيويًا في تاريخ العلاقات الدولية، خاصًا بفترة من أهم الفترات الزمنية، في علاقة (نجد) بالقوى السياسية المحيطة بها، المحلية أو الدولية، والتي كانت تتنافس من أجل فرض النفوذ على الخليج العربي.

وبذلك تُقدم الدراسة رؤية تاريخية واعية، لصراع القوى الدولية حول السيطرة وفرض النفوذ على مشيخات الخليج العربي، من منظور إسلامي، ونتائج وتحليلات سياسية واجتماعية واقتصادية، من خلال الوثائق — التي تنشرها الباحثة لأول مرة — ، سوف تُحدث انقلابًا خطيرًا في تاريخ صراع القوى حول الخليج العربي، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. وهي تُميط اللثام - في الوقت نفسه - عن دلالات مستقبلية كثيرة، بشأن دول وسلطنات الخليج العربي، من خلال الكم الهائل للوثائق والمراسلات البريطانية، من سجلات حكومة بريطانيا بالهند، والتي كانت تتم بين القناصل البريطانية في الخليج وبين حكومة الهند، وهذه المراسلات كانت تصف الصراع الدائر بين القوى الدولية، حول أسبقية فرض النفوذ على المنطقة.

وغيرها من الوثائق التركية، الصادرة عن (نظارة الشئون الخارجية العثمانية)، والتي كانت توضح اهتمام الدولة العثمانية، بمشيخات الخليج، وكذلك تحركات الفرنسيين والألمان والروس وغيرهم حول المنطقة.

وقد استطاعت الباحثة السعودية، استنطاق كل هذه الوثائق ذات الأهمية، بحرفيَّة المؤرخ المُتمكن الواعي، وبمصداقية تُحسد عليها، ووظفتها مع العديد من المراجع الإفرنجية والعربية، والدراسات المتخصصة والمقالات الأخرى، بالدوريات العربية والأجنبية، في موضوعها، وبشكل جيد أضاف الجديد إلى العلم. ومن هنا كان تقدير اللجنة التي ناقشتها درجة (مرتبة الشرف الأولى).

وهذه الدراسة المتميزة، تقع في ٣١٩ صفحة من حجم الفلوسكاب، وتجيء في خمسة فصول رئيسة وخاتمة، مسبوقة بتمهيد، يقع في ٣٨ صفحة. عرضت فيه الباحثة للأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربي، مما جعل من موقعها المتميز هذا، بؤرة للتنافس والصراع عليها بين القوى الاستعمارية الدولية، كل منها تحاول بسط نفوذها وسيطرتها على سواحلها.

كما أظهرت ـ أيضًا ـ علاقة (بريطانيا) بمشيخات الساحل، واستئثارها بالهيمنة على أجزاء كثيرة من المنطقة، منذ أواخر القرن التاسع عشر، وأيضًا أشارت الباحثة، في التمهيد، للوجود العثماني في (الأحساء)، وللصراع العثماني ـ البريطاني حول منطقة البحرين.

وفي (الفصل الأول)، والذي عنونته الباحثة بـ **(تراجع النفوذ العثماني في شرق الجزيرة العربية)**، قدمت عرضًا تاريخيًّا موجزًا، لاهتمامات (الدولة العثمانية)، بوصفها دولة الخلافة، بالحجاز والجزيرة العربية، بشكل عام، في محاولة لفرض السيطرة، تعويضًا لتراجع نفوذها في أوروبا والبلقان، وتثبيت وجودها في (اليمن)، لجعله خط الدفاع الأول عن الأماكن المقدسة. كما أبرزت الباحثة، اهتمام السلطان العثماني (عبد الحميد الثاني)، بدعوته للجامعة الإسلامية، ثم أشارت، وبشكل سريع، لأحداث ثورات البلقان ضد الدولة العثمانية، ومعاهدة (سان استيفانو)، و(مؤتمر برلين)، وجميعها حوادث ترتب عليها اقتطاع أجزاء مهمة وحيويّة، من أملاك الدولة العثمانية في أوروبا.

وبعد ذلك أشارت الباحثة، المتاعب والصعوبات التي واجهت الدولة العثمانية، مع (إمام اليمن) و(الإدريسي)، والتي أعقبها عقد (صلح دعان) مع إمام اليمن، ثم لدخول العثمانيين الحرب ضد إيطاليا في (طرابلس ١٩١١م)، وتعرضت أيضًا لحروب العثمانيين في البلقان ١٩١٢م، الأمر الذي جعل لكل هذه الحوادث ـ أيضًا ـ انعكاسات سلبية وخطيرة على كيان الدولة العثمانية، فأضعفها وجعل نفوذها يتراجع ـ في الوقت نفسه ـ عن شرق الجزيرة العربية.

ويجيء (الفصل الثاني)، لتعرض فيه الباحثة، لأهمية إقامة العلاقات النجديّة، من خلال **(تصاعد دور نجد في شرقي الجزيرة العربية)** ـ وهو عنوان الفصل المذكور ـ خصوصا بعد أن تراجع النفوذ العثماني. وأكدت الباحثة، أن ظهور نجد قوة سياسية في وسط الجزيرة، جاء متزامنًا مع تراجع النفوذ العثماني

في شرقي الجزيرة العربية، وأخذ دورها التاريخي يتصاعد ويقوى. وقد تزايد هذا الدور بروزًا على مسرح الأحداث عندما حمل (عبد العزيز بن عبد الرحمن)، على عاتقه مسئولية إحياء (الدولة السعودية)، باسترداد (الرياض)، لتُصبح مركزًا سياسيًا مُتميزًا في شرقي الجزيرة العربية للعلاقات الدولية.

وأشارت الباحثة إلى أنه بذلك أعاد (ابن سعود) للأذهان، تاريخ الدولة السعودية الأولى، ودورها التاريخي في المنطقة، في الوقت الذي كانت فيه (بريطانيا) مُنشغلة بالسيطرة على (عدن) و(حرب البوير)، وبالأطماع الروسية في (إيران) والفرنسية في (مسقط)! ولم تنته (بريطانيا) من مشاغلها الاستعمارية هذه، إلاَّ وقد أصبح (ابن سعود) هو القوة السياسية المُسيطرة في وسط الجزيرة العربية، بعد انتصاره الحاسم في معركة (البكيرية) و (روضة مهنا)، على عدوه (ابن رشيد). وأكّدت الباحثة، أنه أمام تزايد نفوذ وقوة (ابن سعود)، كان من الطبيعي، أن يلجأ (الشريف حسين) في (الحجاز) إلى (الدولة العثمانية)، لكي تعاونه في القضاء على قوة (نجد) السعودية، الآخذة في التنامي. ولكن هذه المحاولة (الهاشمية) باءت بالفشل.

وتصل بنا الباحثة في دراستها الجيدة هذه، إلى مرحلة ظهور البترول، في منطقة (عربستان)، وانعكاساتها الإيجابية والسلبية، على فاعلية العلاقات الدولية، حيث تعرض في **(الفصل الثالث) لـ (انتقال مركز ثقل العلاقات الدولية في الخليج إلى شماله)**، وخصصته للحديث عن السبب المباشر لهذا التحول، من وجهة نظر القوى الدولية، وهو ظهور (البترول) في (منطقة عربستان) ـ القابعة في شمال الخليج ــ والتي تتمتع بموقع استراتيجي مُتميز، الأمر الذي جعل أنظار العالم الغربي تتجه إلى شمال الخليج؛ فتزايدت مكانة (عربستان) الاقتصادية، وبرزت أهمية مدّ خطوط للسكك الحديدية، وبطبيعة الحال، تعددت المشروعات المطروحة بهذا الشأن، فتصاعدت المنافسة الدولية،

بين القوى الاستعمارية الكبرى حول أسبقية الحصول على امتيازات للبدء في مدّ الخطوط الحديدية، وخطوط الملاحة الدولية، (حيث دجلة والفرات وشط العرب ونهر قارون)؛ ومراكز التلغراف ومحطات الفحم، للسيطرة على المنطقة.

وأثارت الباحثة - أيضا - في هذا الفصل، انتقال الضغط السياسي الدولي، نحو (الكويت)، وظهور مقاومة (الاتحاديين) الأتراك، وتداخل العلاقات الدولية، وبشكل خطير للغاية، يصعب على العديد من الباحثين السيطرة على محاوره، بالشكل الإيجابي الذي عالجته الباحثة السعودية، في دراستها هذه.

وفي **(الفصل الرابع)** عرضت الباحثة لانعكاسات تصاعد دور نجد السياسي المُسيطر في وسط الجزيرة العربية، وتتبعت **(التطور الذي طرأ على شكل العلاقات الدولية في شرق الجزيرة العربية)**، نتيجة لظهور (نجد) على مسرح الأحداث. وأوضحت، كيف أن ظهور هذه القوة السياسية في وسط الجزيرة، قد لفت أنظار الكثيرين من الدبلوماسيين الأوروبيين (الرسميين وغير الرسميين)، فبدأت مرحلة جديدة من الاتصالات والوفود الرسمية والشخصية، والمؤتمرات والمساعي، في محاولة لإقامة علاقات دبلوماسية مع هذه القوة الوليدة في وسط الجزيرة.

فتعرض الباحثة لمحاولات (برس كوكس Percy Cox) ـ المقيم السياسي البريطاني في الخليج، لإقامة علاقات مع (ابن سعود)، ولمحاولات (شكسبير Shakespear) ـ مساعد المقيم السياسي البريطاني في مسقط، ثم وكيلاً سياسيًّا لبريطانيا في الكويت عام ١٩٠٩م ـ، لترشيد خُطى السياسة البريطانية، بالنسبة للقوى السياسية المتنامية في (نجد). ولرحلة أو (بعثة الجمعية الجغرافية الدنماركية) إلى (الرياض)، بقيادة (باركلي راونكير Barkly Raunkaier)، بدعوى دراسة الأحوال الطبيعية والنباتية، وجمع المعلومات العلمية، عن المنطقة المحيطة بالخليج. كما تناولت الباحثة، في هذا الفصل أيضًا، مباحثات

(ابن سعود) مع العثمانيين، من أجل تسوية المسائل المعلقة بين الطرفين، في (مؤتمر البصرة) و(مؤتمر عنيزة)، وأشارت الباحثة إلى، الدور الإيجابي للشيخ (مبارك الصباح) ـ حاكم الكويت ـ، كوسيط بين (العثمانيين) و(ابن سعود) من جهة، وبين (البريطانيين) و (ابن سعود)، من جهة أخرى.

أما (الفصل الخامس) ـ والأخير ـ فقد تناولت فيه الباحثة **(استرداد الاحساء وأثر ذلك على علاقات نجد بالقوى المحيطة بها)**، وأوضحت الباحثة حقيقة تاريخية مهمة، وهي: «أن استرداد نجد للأحساء، أحدث انقلابًا كبيرًا في موازين القوى حول الخليج». ويُعدّ نقطة تحول خطيرة جدًّا في تاريخ نجد نفسها، حيث غدت (نجد) وزعيمها (ابن سعود) القوة السياسية العربية الوحيدة، المسيطرة على ساحل الأحساء.

وأكدت الباحثة أنه نتيجة لذلك تطورت نظرة القوى الاستعمارية المتنافسة، إلى (نجد)، باقتصادياتها المستقبلية، وبوصفها قوة سياسية لها مكانتها المتميزة بالمنطقة، ولا يُستهان بها، حيث غدا زعيمها (ابن سعود) يُسيطر على منطقة واسعة تُطل على الخليج العربي.

فسارعت (بريطانيا) مُضطرة لتغيير (الازدواجية) في سياستها، التي كانت تنتهجها مع (نجد)، منذ مطلع القرن العشرين، وأرسلت (شكسبير) ـ للمرة الثانية ـ على وجه السرعة، ليعقد اتفاقًا مع (ابن سعود) الذي غدا زعيمًا عربيًّا قويًّا!

ولقد تمخضت الدبلوماسية البريطانية الجديدة، تجاه (نجد)، عن عقد (معاهدة القطيف) في عام ١٩١٥م، والتي اعترفت فيها (بريطانيا العظمى) بسلطة (الإمام عبدالعزيز بن سعود)، واستقلاله في (نجد) وملحقاتها. وفي الوقت نفسه، عرضت الباحثة ـ كذلك ـ لانعكاسات الحرب العالمية الأولى، على مراكز وأوضاع الشيوخ والأمراء في الجزيرة العربية.

وفي (الخاتمة)؛ التي ضمنتها الباحثة نتائج دراستها العلمية القيمة، توصلت (الدكتورة منيرة) إلى:

■ أن الفترة التاريخية (١٩٠٢ ـ ١٩١٤م)، وهي الفترة التي تناولتها الدراسة، تُمثل فترة مهمة جدًّا في تاريخ الصراع الاستعماري، حول المناطق الاستراتيجية في العالم، وقد واكب هذه الفترة، ظهور (نجد) بوصفها قوة سياسية جديدة في العالم، لها علاقاتها مع القوى المحيطة بها.

كما رافق هذه الفترة، اهتمام متزايد من جانب (الدولة العثمانية) بالجزيرة العربية، لاستمرار تحقيق الزعامة السياسية في العالم الإسلامي، باعتبار سيطرتها على بعض أجزاء من شبه الجزيرة، فقد كان سلاطين العثمانيين يدركون جيدًا، أهمية المحافظة على الجزيرة العربية، التي تحتضن بين جنباتها المقدسات الإسلامية، وقبلة المسلمين، وحماية هذه المقدسات ضمانًا للاحتفاظ، بلقب خليفة المسلمين.

■ إن (بريطانيا) كانت أكثر القوى الاستعمارية الدولية اهتمامًا بالخليج ومشيخاته، والسيطرة عليهما، وقد أخذت تسعى جاهدةً، للقضاء على منافسة ومزاحمة القوى الاستعمارية الأخرى، والتي كانت تهدد نفوذها في المنطقة، لجعل الخليج سوقًا تجارية للبضائع والمصنوعات البريطانية، لتحقق بذلك مكاسب اقتصادية واستراتيجية واسعة، ولتأمين الطريق نحو الهند؛ فأخذت مواقف عدائية تجاه كل من (الدولة العثمانية، ألمانيا، روسيا، فرنسا، إيطاليا، الشيوخ، والأمراء في الجزيرة العربية)، وحاولت (لندن) كثيرًا احتواء مشايخ الساحل الخليجي، تارة بالتهديد، وتارة أخرى بالترغيب.

ومن أهم ما أظهرته نتائج هذه الدراسة ـ أيضًا، أن بريطانيا ربما نجحت في سياستها منذ مطلع القرن العشرين، وبخاصة الفترة التاريخية (١٩٠٢ ـ ١٩١٤م) موضوع الدراسة، حيث شهدت ازدواجية في السياسة البريطانية،

تجاه كل من (نجد) و(الحجاز)، وهي ازدواجية أملتها المصالح الذاتية، لكل من (حكومة الهند البريطانية) أو (وزارة الهند)، والتي كانت تتبع مصالحها من هدوء الأحوال في منطقة الخليج العربي. على حين أن (وزارة الخارجية البريطانية) في (لندن)، كانت ترى في شخص (الشريف حسين) بالحجاز، هو خيّر مُنفذ لمخططاتها أثناء الحرب العالمية الأولى، ليس فقط، لموقعه الجغرافي في الجزيرة العربية، أي بحكم وجوده في (مكة) و(المدينة المنورة)، وإنما - أيضًا - بحكم موقعه الديني، لأنه يعود بنسبه إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام، وذلك يُعطيه أفضلية على غيره من الحكام المسلمين في التفاف العرب حوله.

وفي الوقت نفسه، كان (السير برس كوكس)، هو السياسي البريطاني الوحيد، الذي يرى أن (ابن سعود)، في (نجد)، سيلعب دورًا مهمًا في المنطقة، ولذلك أخذ (كوكس) يسعى إلى ربط بلاده بعلاقات وديّة معه. وظل (كوكس) يحث حكومة الهند البريطانية، على الإسراع في هذا الأمر، حتى وافقت على وجهة نظره!

وأثارت الدراسة في نتائجها - أيضًا - حقيقة أن انشغال كل من (بريطانيا) و(الدولة العثمانية) - وهما أقوى القوى المحيطة - بالأحداث والتطورات السياسية، خلال تلك الفترة الزمنية، وفي جهات متعددة، هي التي أتاحت الفرصة لنجد، بزعامة (ابن سعود) في الظهور قوةً سياسية لها مكانتها المتميزة في المنطقة. كما أن علاقات (نجد)، بوصفها القوة الجديدة في المنطقة، قد تداخلت، مع علاقات بريطانيا بالمشيخات العربية على الساحل المهادن، وبعلاقاتها، خصوصا مع الكويت، هذا من جانب، ومع بريطانيا من جانب آخر، والدولة العثمانية، من جانب ثالث. وأن كل هذه الظروف، قد خدمت (نجدًا)، في تطورها السياسي، وبالتالي إقامة علاقات دبلوماسية متكافئة مع كل القوى الدولية والمحيطة بالمنطقة. وكان بمقدورها - في الوقت نفسه - أن

تتخذ موقفًا متميزًا ، أيضًا ، (بالحياد) خلال الحرب العالمية الأولى .

كما أن الدراسة ، أكّدت في نتائجها ، أيضًا ، أن كل هذه الظروف ، قد أتاحت لنجد ، فرصة إنجازها عملية البناء الداخلي ، على مستوياتها الاقتصادية والاجتماعية كافة ، في (سلطنة نجد) الغنية اقتصاديًّا ، والقوية سياسيًّا .

وقد اختارت الباحثة السعودية الجادة ، في دراستها هذه ، المنهج التاريخي التحليلي ، في عرضها لمحاور موضوعها ، في تسلسل منطقي جيد ، ووضعت الدراسة برمتها في قالب العلاقات الدولية ، نتيجة لتوافر الكثير من المصادر ذات الصفة الوَثَقِيَّة ، لدى الباحثة ، حيث اعتمدت (الدكتورة منيرة عبد الله العرينان) ، على مجموعة الوثائق البريطانية ، المستخرجة من سجلات حكومة بريطانيا في الهند .

India office library and Recards;

وهذه الوثائق جاءت ضمن الموضوعات السياسية الهندية .

India Political Collection and Despactches.

وغيرها من (أرشيف السجلات البريطانية العام

Public Record office checry lane, London.

والتي تحتوي على كافة المراسلات والتقارير ، لقناصل ومعتمدي بريطانيا في الخليج ، وكذلك تحوي نصوص المعاهدات المهمة بالمنطقة . وقد قدمت الباحثة السعودية الجادة ، نقدًا تاريخيًّا موضوعيًّا ، لكل هذه المجموعات الوثقية في تقديمها لرسالتها العلمية الجادة ، فأضافت بذلك عرضًا جديدًا لعملية (نقد المصادر) ، بوصفه أحد رموز نجاح منهج البحث العلمي .

ويؤخذ على الباحثة ، في دراستها هذه ، أنها أسرفت كثيرًا ، في تمهيدها للموضوع ، حيث أفردت للتمهيد فقط ، (٣٨ صفحة) ، وهذا قدر كبير من الصفحات إذا ما قيس مثلاً بعدد صفحات (الفصل الرابع) من الدراسة ، (٢٠ صفحة) ، وهو فصل مهم جدًّا في الدراسة ؛ وهذا خلل منهجي في الشكل

فقط، كان على الباحثة أن تراعي ذلك.

وأخيرًا، فإن الباحثة قد غاب عنها ـ كذلك ـ مُراجعة ترجمات كافة الوثائق، وإعادة صياغتها وفق المُصطلح التاريخي، فقد جاءت معظم الإشارات الوثقية ركيكة من حيث الترجمة للمُصطلح التاريخي.

وباختصار، فإن كان لنا من بعض المآخذ العلمية على هذه الدراسة القيِّمة، فإن هذه الملاحظات لا تُقلل ـ على الإطلاق ـ من قيمة الجهد العلمي الخلاق، الذي بذلته الباحثة الجادة الدكتورة منيرة العرينان، في هذه الرسالة العلمية، والتي تُعد بحق، إنجازًا أكاديميًا مُتميزًا للجامعات السعودية، في مجال البحث (في تاريخ العلاقات الدولية)، بالمملكة العربية السعودية.

وفي تقديرنا أنها الرسالة الأولى التي وضعت أمام الباحثين الشبان مفتاحًا لمادة علمية خام، عن مسألة تطور العلاقات السياسية، لسلطنة نجد، منذ نشأتها وحتى تبوئها هذه المكانة العظيمة، في تاريخ العرب الإسلامي الحديث والمعاصر.

فلقد أثبتت الباحثة السعودية الجادة (الدكتورة منيرة)، أنها تتمتع بمستوى عال في السيطرة على الموضوع، ومعرفة عميقة بأوضاع بلادها الاقتصادية والاجتماعية، وبالتيارات السياسية، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وأنها وُفقت ـ إلى درجة عالية ـ في توظيف المادة الوثقية الفخمة التي وقعت تحت يدها، توظيفًا جيدًا، وكذا أمر استخدامها للمنهج العلمي السليم، وتقسيمها للموضوع، وعرضه بأسلوب علمي رصين، ولغة عربية سليمة، وبشكل يُضيف الجديد إلى العلم، تستحق عليه الثناء.

● ● ●